مقالة رأي

الصراعات المستمرة: تاريخ لا ينتهي في عالم متغير

أحمد حسن

تصـــدر عن مركـز رواق بـــغداد للسياســـات العـامة
Published by Rewaq Baghdad Center for Public Policy

30 تشرين الثاني 2024

مِداد مشروعٌ بحثي يعنى بتقديم اوراق وافكار دقيقة عبر سلاسل، وحلقات متكاملة، تحاول ان تغطي الطيف الواسع من المشكلات التي تواجه قطاعات الدولة العراقية بكل اركانها، ويعتمد بشكل اساس على اوراق السياسات العامة، والسيمنار، والحوارات المعمقة، بين مختلف الاطراف، من صناع القرار في الحكومة التنفيذية، الى التشريعين في مجلس النواب، فضلا عن الباحثين والخبراء في الجامعات ومؤسسات البحث العراقية، وهو احد مشاريع مركز رواق بغداد للسياسات العامة، و يعد هذا المشروع امتداداً للجهد الذي بذل على مدى خمس سنوات من عمر المركز الذي تأسس في العام 2019، اذ قدم خلال تلك السنوات عشرات الدراسات والمشاريع البحثية والأوراق التي نشرت في الموقع الإليكتروني لمركز رواق بغداد.

رئيس المركز عباس العنبوري

مدير المشروع انور المؤمن

تصميم اية الحكيم

تعود حقوق النشر الى مشروع مداد البحثي والمؤسسة المالكة له، وبالإمكان الاستفادة والاقتباس الجزئي من الاعمال البحثية مع الاشارة اليها، بالنماذج العلمية المعتمدة في كتابة المصادر، كما تجدر الاشارة الى انه لا يجوز استعمال هذه الدراسات او اعادة نشرها بأي شكل من الاشكال دون الحصول على اذن مسبق من المركز بالنسبة للمؤلف او الباحثين الاخرين.

وفيما يتعلق بأخلاء المسؤولية القانونية تجاه الاشخاص الطبيعيين او المعنويين فضلا عن الاحداث والقضايا، فأن مشروع مداد والمؤسسة المالكة له (مركز رواق بغداد) لا يتبنى بالضرورة، الاراء الواردة في هذه الدراسات التي تحمل اسماء مؤلفيها، ولا تعكس وجهة نظر فريق العمل للمركز او مجلس ادارته.

يمكن تحميل هذه الورقة مجاناً من الموقع الايكتروني www.rewaqnaghdad.org

رقم الهاتف: 07845592793

البريد الالكتروني info@rewaqbaghdad.org :

صفحة الفيس بوك: مركز رواق بغداد للسياسات العامّة

صفحة الإنستغرام RewaqBaghdad :

قناة اليوتيوبRewaq Baghdad :

الصراعات المستمرة: تاريخ لا ينتهي في عالم متغير

أحمد حسن

باحث وأكاديمي

فكرة "نهاية التاريخ" كما طرحها فرانسيس فوكوياما ليست فقط نظرة تأملية في مسيرة التطور السياسي والاقتصادي للمجتمعات، بل هي تمثل أطروحة كبرى حول مسار الحضارة واتجاهاتها النهائية. هذه الرؤية، التي انبثقت في خضم انهيار الاتحاد السوفيتي وصعود الهيمنة الغربية، تشير إلى نهاية الصراعات الأيديولوجية الكبرى؛ حيث يرى فوكوياما أن "الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية" تمثلان ذروة التقدم السياسي والاجتماعي، وأنهما النظامان اللذان ينسجمان مع الطبيعة البشرية في سعيها نحو الحرية وتحقيق الذات.

لكن هذه الفكرة لم تكن وليدة التسعينيات، بل تعود إلى جذور فلسفية عميقة، تتلمس ملامحها في أعمال هيغل، الذي اعتبر أن التاريخ يتبع "عقلًا" يحكمه نحو غاية معينة. في هيغلية فوكوياما، نجد صدى لفكرة الهيغلية التي ترى في التطور التاريخي صراعًا بين الأضداد ينتهي عند مرحلة "وعي الروح" التي تتجسد في دولة عقلانية شمولية تُمثل قمة الإنجاز الإنساني.

غير أن هذه النظرة، والتي تبدو منجذبة إلى نهاية سعيدة للتاريخ، تتجاهل صراعات القوى والجغرافيا السياسية المعقدة التي تهيمن على النظام العالمي. لقد تنبأ بعض المفكرين، أمثال صامويل هنتنغتون، بأن صدام الحضارات سيكون هو النمط الجديد للصراع، حيث سيصبح الدين، الهوية، والانتماء الثقافي قوى محورية تعيد رسم خرائط العالم بشكل أكثر تعقيدًا مما كان يتصوره فوكوياما.

من جهة أخرى، تظهر النظريات الجيوسياسية الراهنة أن النظام الدولي الحالي ليس سوى صورة مؤقتة في إطار صراعات أعمق لا يمكن اختزالها في مفهوم "نهاية التاريخ". إن القوى الصاعدة من آسيا، وتحولات القوة في الشرق الأوسط، والمنافسة الاقتصادية والتكنولوجيا، تشير جميعها إلى ديناميكية تاريخية مستمرة، يتجادل فيها الفاعلون على مسرح الجغرافيا السياسية العالمية، حيث تظل الممارسات السلطوية والاستراتيجيات القومية تنافس وتزاحم النظم الليبرالية.

ربما تعبر فكرة "نهاية التاريخ" عن رغبة داخلية في استقرار النظام العالمي، ولكن ما يغفل عنه هذا الطرح هو الطبيعة المتغيرة للتاريخ نفسه. فالتاريخ، بكونه سردية إنسانية لا نهائية، لا يخضع لقوانين مستقرة، بل هو كيان عضوي، تتحرك أطواره وفقًا للظروف والمتغيرات الجيوسياسية، الاجتماعية، والثقافية. لذا، وفي ضوء التحولات المعاصرة، قد يكون من الأنسب القول بأن التاريخ يتحدى ذاته باستمرار، مجسدًا عبر أمواجه المتتالية إصرار الإنسان على خلق أفق جديد يتجاوز ثوابت الحاضر، ليفتح المجال أمام مستقبلٍ مجهول، قد لا يحمل نهاية بل بداية جديدة لصراع أفكار لا ينتهي.

تاريخ لا ينتهي

قبل أن يطرح فرانسيس فوكوياما رؤيته حول "نهاية التاريخ"، برز كارل ماركس كأحد أبرز المفكرين الذين صاغوا التاريخ كعملية ديناميكية لا تعرف نهاية ثابتة، بل تتسم بصراع دائم ومتجدد بين الطبقات الاجتماعية المتعارضة. رأى ماركس في التاريخ تجسيدًا لتناقضات اقتصادية واجتماعية تنشأ نتيجة بنى الإنتاج وظروفه، حيث لا يمكن إنهاء هذه الصراعات إلا عبر ثورة شاملة تضع نظامًا اجتماعيًا جديدًا. بالنسبة لماركس، التاريخ ليس خطًّا تصاعديًا نحو قمة واحدة، بل هو تيار متعرج تتغير معالمه بعمق مع

كل صدام طبقي، يتجدد عند كل مستوى من مستويات الصراع ويعيد تعريف مستقبل الإنسانية في مسار حيوي لا ينتهي.

بالمقابل، نجد في فلسفة هيغل تصورًا مغايرًا، حيث يُعتبر التاريخ ليس فقط نتاج الصراعات الاجتماعية، بل هو أيضًا مسار للوعي الذاتي يتجسد عبر صراع بين "الإرادات" المتعارضة والديالكتيك الروحي. في نظر هيغل، التاريخ عبارة عن صيرورة تتحرك نحو اكتمال "الروح" من خلال جدل مستمر بين القوى البشرية، و"النفي" الدائم للتصورات السابقة التي تلد مفاهيم جديدة، وهكذا يُبقي التاريخ في حالة حركة مستمرة ومتسارعة نحو غايات تبدو مفتوحة دائمًا على احتمالات جديدة. إنه مسرح الإرادات البشرية التي تعيد صياغة ذاتها على مدار الحقب، حيث أن كل مرحلة تاريخية تنطوي على فناءٍ ضروري لما سبقها ونشوءٍ لأفق جديد، ما يحافظ على ديناميكية التاريخ كعملية لا تتوقف.

أما ابن خلدون، فقد قدم قراءة تاريخية تنأى عن فكرة الحتمية نحو النهاية أو الديمومة الأبدية لنظام بعينه. ففي مقدمته، يصف التاريخ كحركة دائرية، حيث تخضع الأمم والدول لدورة "النشوء، الازدهار، الانهيار". يرى ابن خلدون أن هذا التغيير هو سُنّة كونية، وأن المجتمع والدولة يولدان، ينموان، ثم يصلان إلى قمة القوة قبل أن يضعفا ويتلاشيا. هذه الدورة ليست "نهاية للتاريخ"، وإنما استمرار لنظام حركي يعكس طبيعة الحضارة البشرية المتغيرة، فهي تشبه الموجة التي تندفع للأمام ولكنها تتشكل من دورات متتابعة تحافظ على جذوة التاريخ كعملية حيوية متكررة.

يتضح هنا أن التاريخ، وفق رؤى ماركس، هيغل، وابن خلدون، ليس مسارًا خطيًا نحو النهاية، بل هو مرآة للتوترات البشرية، تعيد صياغة نفسها بأشكال لا يمكن التنبؤ بها بشكل كامل. إنه عرض متعدد الطبقات لصراعات القوة، والطموحات الاجتماعية، والتحولات الروحية، حيث يمثل كل مفكر بعدًا مختلفًا لهذه العملية المتداخلة. هذه الحركية الدائمة تجعل من التاريخ مساحة مفتوحة للصراعات وإعادة التشكيل، تُظهر أن "نهاية التاريخ" قد تكون مجرد وهم، وأن المسيرة البشرية ستظل تبحث عن معاني جديدة، وأفق دائم التوسع، يأبى الاستقرار ويعيد بناء ذاته بلا توقف، ليبقى التاريخ بحد ذاته سرًّا لا ينتهي.

حين قدم فرانسيس فوكوياما أطروحته حول "نهاية التاريخ"، كان يعبر عن قناعةٍ عميقة بأن الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية قد شكلتا نهاية الطريق أمام التطور الأيديولوجي والسياسي للبشرية. في نظر فوكوياما، انتصرت الليبرالية على أيديولوجيات كبرى كانت تمثل تحدياتها عبر التاريخ، مثل الشيوعية والفاشية؛ فالنظام الديمقراطي الرأسمالي أثبت، بحسبه، توافقه مع الطموحات الإنسانية نحو الحرية والازدهار الاقتصادي، مما جعل منه التجسد الأمثل للحكم والمجتمع.

ورغم أن فوكوياما لم يقصد أن "نهاية التاريخ" تعني توقف الأحداث أو التغييرات، بل كان يشير إلى أن الصراع الأيديولوجي قد وصل إلى نهايته، إلا أن الفكرة قوبلت بترحيب واسع في الغرب الذي رأى في نهاية الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتي انتصارًا نهائيًا لقيمه. وبدت الأطروحة متوافقة مع تصاعد

التفوق الغربي واستقرار النظام العالمي في تلك الفترة، حيث افترض البعض أن الديمقراطية الليبرالية قد تصبح نموذجًا عالميًا، يقود البشرية إلى حقبة من السلام المستدام والتقدم المنضبط.

تناقض نهاية صراع الأيديولوجيات

وسط الأحداث العالمية المتلاحقة، سرعان ما برزت تناقضات كبيرة دفعت إلى التشكيك في نبوءة "نهاية التاريخ". فقد أدى صعود الحركات القومية والشعبوية، بجانب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، إلى تسليط الضوء على هشاشة النموذج الليبرالي في بعض المناطق، مؤكداً أنه غير محصن ضد الاستقطاب الداخلي ولا ضد تحديات العولمة. من ناحية أخرى، جسدت الحروب في العراق وسوريا، وظهور الإرهاب الدولي مع صعود تنظيم داعش وما تلاه من هزيمة أمريكا في أفغانستان وعودة حركة طالبان إلى الواجهة، ثم الحرب الروسية في أوكرانيا، والإبادة الجماعية في غزة، والحرب الإسرائيلية على الأراضي اللبنانية، والصراع المسلح بين إسرائيل وإيران وحلفائها في المنطقة، والحرب الأهلية في السودان، والهزيمة الفرنسية في الساحل الإفريقي، وتهديد الصين باجتياح تايوان، وهيمنة الحوثيين على البحر الأحمر، إضافةً إلى التوترات العميقة بين دول الاتحاد الأوروبي وخروج بريطانيا منه، وتراجع نفوذ الأمم المتحدة، أمثلة حية على أن الصراعات الأيديولوجية والدينية لم تُدفن تحت مظلة الديمقراطية العالمية، بل عادت بقوة لتطفو على السطح السياسي العالمي، مؤذنةً باستمرار دورة العنف والتنافس الجيوسياسي.

فالجغرافيا السياسية المعاصرة أثبتت أن فكرة "النهاية" كانت أقرب إلى تعبير عن طموحات الغرب في اللحظة التاريخية التي سادت فيها أحادية القطب، لكنها لم تلتقط الديناميات الحقيقية للمجتمعات البشرية وتعقيداتها. يتضح اليوم أن القوى الإقليمية الصاعدة كالصين والهند، والصراعات في الشرق الأوسط وأوروبا الشرقية، وعودة روسيا كلاعب مؤثر، تؤكد أن العالم يعيش ضمن منظومة متعددة الأقطاب ومتغيرة، حيث تسعى كل قوة لتأكيد وجودها وتحدي قواعد النظام الذي فرضته حقبة "نهاية التاريخ".

من منظور فلسفي، ربما كانت رؤية فوكوياما مجرد وهمٍ لحالة مؤقتة من الهيمنة، حيث يبقى التاريخ عملية جدلية مستمرة تتغذى على الصراعات. فالواقع الاجتماعي والسياسي يتشكل عبر جدل دائم بين الأيديولوجيات، يُشعل جذوة الصراعات ويعيد تشكيل القوى. وكما أشار هيغل، فإن التاريخ هو "صراع الروح" الذي يعيد تعريف ذاته باستمرار؛ صراع بين المفاهيم والقيم، حيث لا نهاية ثابتة ولا انتصار مطلق، بل حركة دائمة لا تعرف السكون. ومن هنا، يظل التاريخ مساحة مفتوحة أمام تناقضات العصر وتحدياته، في تمرد على مفهوم النهاية، واستمرارٍ لمسيرة البحث عن المعنى والهوية في عالمٍ لا يعرف الثبات.

الصراعات المستمرة في الشرق الأوسط تؤكد أن التاريخ، في واقعه العميق، لا يمكن أن يُختزل في نهاية معينة أو نتيجة حتمية. فعلى مدار العقود الأخيرة، كانت دول مثل العراق وسوريا ولبنان، وغيرها من بلدان الشرق الأوسط، عالقةً في دوامة من الصراعات المتجذرة، حيث يتداخل فيها إرث الاستعمار مع تركيبات معقدة من الهويات والطوائف والقوميات، مما يضفي على النزاعات بُعدًا تاريخيًا معقدًا. الغزو

الأمريكي للعراق عام 2003، على سبيل المثال، لم يمثل "نهاية للصراع الأيديولوجي في الشرق الاوسط" بقدر ما كان بداية لفصل جديد من الصراع على السلطة، والطائفية، والنفوذ الإقليمي، وهي عوامل تتعارض جذريًا مع تصورات الغرب حول تأسيس نظام ديمقراطي يُحاكي الليبرالية الغربية.

لم يتوقف هذا "التدخل التحريري"، كما كان يُصوّر، عند العراق فقط، بل امتد أثره ليمس التركيبة السياسية والاجتماعية لدول الجوار. إن سلسلة الأزمات المتلاحقة التي شهدتها المنطقة، بما في ذلك الحرب الأهلية السورية وتداعياتها الإقليمية، والنزاعات الطائفية في اليمن والحرب مع السعودية، تؤكد الطبيعة المتحركة للتاريخ وتبرهن على أن مفهوم "نهاية التاريخ" الذي نادى به فوكوياما لا يجد له مكانًا في واقع سياسي واجتماعي بهذا التعقيد. فما شهده الشرق الأوسط هو إعادة تشكل مستمرة للأنظمة السياسية والمجتمعات، تتفاعل فيها القوى الداخلية والخارجية بشكل دائم، مولدةً حقبة جديدة من الفوضى تتحدى كل تصور لنهاية نهائية للصراع.

وبالتوازي مع هذه الصراعات، شهدت المجتمعات الغربية نفسها عودةً ملحوظة لصراعات الهوية والانقسام السياسي، مدفوعةً بصعود الشعبوية، التي باتت تهدد النظم الليبرالية الراسخة. كان انتخاب دونالد ترامب في الولايات المتحدة وصعود الحركات القومية في أوروبا بمثابة إشارة قوية إلى عودة التيارات المحافظة التي تعيد النظر في القيم الليبرالية ذاتها. تبنى ترامب خطابًا مناقضًا للتوجهات العالمية الليبرالية، مشككًا في قضايا من قبيل التغير المناخي وحقوق الأقليات، مما يعكس توترًا داخليًا حول الهوية الثقافية والسياسية للمجتمعات الغربية ذاتها. هذا التغيير لا يعبر فقط عن تحول سياسي، بل عن أزمة عميقة في بنية النظام العالمي الليبرالي، حيث يجد المجتمع نفسه في مواجهة مع ماضيه؛ إنه عودة لصراع الهوية، ومحاولة لإعادة بناء مفاهيم الذات الوطنية في وجه قيم العولمة المتجاوزة للحدود.

إن هذه الظواهر، سواء في الشرق الأوسط أو الغرب وافريقيا، تُبرز الطبيعة الحية والديناميكية للتاريخ، والذي يتشكل باستمرار من تفاعلات القوى المتعارضة. فكما أشار ماركس، التاريخ هو صراع دائم بين الطبقات والمصالح، إنه عملية جدلية تولد باستمرار واقعًا جديدًا. وكما أشار هيغل، فإن "العقل التاريخي" لا ينمو بشكل خطي، بل يتحقق من خلال تناقضاته وصراعاته، حيث تُبنى كل مرحلة من جديد على أنقاض ما سبقها.

لذلك، يعود ابن خلدون ليقدم قراءة للتاريخ كعملية دورية تتفاعل فيها القوى الاجتماعية وتعيد تشكيل مسار الحضارة عبر دورات من الصعود والانهيار، لتكشف أن النهاية المزعومة للتاريخ لا تعدو أن تكون وهمًا. فالتاريخ يتجدد كحركة دائمة لا تتوقف، يدفعها السعي الإنساني لتحقيق الذات وإعادة صياغة المستقبل.

إذاً، فإن مراجعة الأحداث الراهنة والتأمل في النظريات الكبرى حول التاريخ توصلنا إلى قناعة أن التاريخ، بعمقه وتعقيده، يتجاوز حدود النهايات المغلقة. إنه يتطور عبر تحولات مستمرة، تُبقيه حركيًا وصراعيًا، حيث لا وجود لنهاية ثابتة، بل هناك تجدد دائم ينبثق من تناقضات الأزمنة، ليؤكد أن الصراع هو جوهر الحراك البشري، وأن التاريخ، في جوهره، هو قصة مفتوحة لا تعرف الانتهاء.